

رؤية سوسيولوجية تختوى النص الأدبي

د/ بلعور الطاهر. جامعة جيجل/الجزائر

1- مدخل:

بعد تجاوز علم الاجتماع لمرحلة إثبات وجوده المعرفي و مشروعيته العلمية على المستويين الأكاديمي و المجتمعي ، حاول علماء الاجتماع و المشتغلين به التطوير في طموحهم العلمي و أهدافهم المعرفية و ذلك من خلال محاولة استهداف حقول علمية و معرفية أخرى و جعلها مواضيع للدراسة كالعلوم الطبيعية و العلوم الاقتصادية و العلوم السياسية و الأدب العالمي ... و ذلك من خلال البحث في التقاطع المعرفي و البحثي بين علم الاجتماع و تلك العلوم . و هي إشارة قوية إلى شساعة المواضيع التي تدخل ضمن اهتماماته مهما اختلفت تظاهراتها و سياقاتها .

في هذا السياق اهتم علم الاجتماع بالأدب كفرع معرفي ، و أخذ الإنتاج الأدبي موضوعا للدراسة من خلال فرع جديد بدأ يتبلور في السنوات الأخيرة على الرغم من قلة إنتاجه العلمي و هو ما أصبح يصطلح على تسميته بـ " سوسيولوجيا الأدب " أو "علم الاجتماع الأدب" كفرع من فروع علم الاجتماع العام . و يهتم بدراسة و تحليل و نقد كل ما له علاقة بالإنتاج الأدبي سواء في علاقته بالمجتمع أم شروط إنتاجه و إعادة إنتاجه في سياق اجتماعي ، على اعتبار أن الأديب يعيش في بيئة اجتماعية يتأثر بها و يؤثر فيها ، و بالتالي فإن إنتاجه الأدبي هو انعكاس لذلك الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه من منطلق أنه لا يوجد إنتاج أدبي لا يعبر على واقع اجتماعي لأفراد المجتمع أو جزء منهم (1) . و هذا ما دفع أو يدفع عالم الاجتماع أو المشتغل به إلى مساءلة الأديب و الشاعر و القاص و الروائي و القارئ لذلك المنتج عن القيمة الأدبية و السوسيولوجية و مدى تعبيرها و تناغمها مع ذلك

الواقع الاجتماعي الذي أنتج القصيدة الشعرية و الرواية و القصة و غيرها من الإنتاجات الأدبية .

2- النص الأدبي و أبعاده الاجتماعية :

1.2 - معنى النص الأدبي :

يشكل مفهوم النص الأدبي مشكلة في حد ذاته شأنه شأن العديد من المفاهيم و يرجع هذا لمجموعة من الأسباب نذكر أهمها عدم استقراره كمفهوم أدبي و نقدي من جهة ، و من جهة أخرى محاولة العديد من المفكرين و الباحثين على اختلاف حقولهم المعرفية تقديم تعريفات له ، و هي عادة ترتبط بالخلفية الفكرية و الإيديولوجية و النظرية لصاحب التعريف . و هذا ما زاد في دسامة و تعقد مفهوم النص الأدبي الذي يرتبط بالأدب أو أكثر تداولاً فيه مقارنة بالعلوم الأخرى . و في بحثنا عن بعض التعريفات النظرية و تقديمها وجدنا أنفسنا أمام تعريفات أدبية متعددة و كل واحد منها يعكس وجهة نظر خاصة بمرجعية فكرية و معرفية معينة انطلق منها صاحب التعريف . و هو ما أدى إلى تشابك هذه التعريفات و اختلافها مما زاد في دسامة و تعقد هذا المفهوم و دفعنا إلى عدم تقديم واحد منها لما يلي :

- تلك التعاريف كلها أدبية لا تتوافق و هذه الرؤية السوسيولوجية من ذلك المنطلق يمكن القول بأن النص الأدبي في موضوعنا هذا نقصد به رسالة بين مخاطب (كاتب) و مخاطب (قارئ) . هذه الرسالة تكون عبارة عن عدة جمل ، كتاب ، أو إنتاج أدبي مثل القصة ، الرواية ، المقامة ، المعلقة ، القصيدة الشعرية الخاطرة و غيرها من الإنتاجات الأدبية ، و هي تتضمن العديد من المصطلحات والأفكار المعبرة عن أشياء نفسية أو اجتماعية أو تاريخية أو سياسية أو ثقافية أو دينية ... و هذا ما يدفعنا إلى التساؤل هل النص الأدبي يعكس بالضرورة الواقع الاجتماعي و يعبر عنه بأشكال مختلفة . و عن مدى تأثير البيئة الاجتماعية على صاحبه .

2.2/ الأبعاد الاجتماعية للنص الأدبي :

يعيش منتج النص الأدبي في بيئة اجتماعية لها قيمها و معتقداتها و تقاليدها وثقافتها العامة و الفرعية و التي تشكلت و تبلورت داخل المجتمع نتيجة تأثير العديد من العوامل الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الدينية و الثقافية. هذه البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الأديب و الشاعر و القاص و الروائي... تؤثر فيه و ينعكس ذلك التأثير على إنتاجه الذي يعبر في حقيقة الأمر عن العلاقة بين المنتج و المجتمع ، ووعيه لما يجري من حوله و محاولة كشف ما يخص المجتمع و ما يجري بداخله الظاهر منه أو المتخفي الذي لا يعلمه عامة الناس ، أو لا يستطيعون معرفة معانيه و أبعاده .

إن النص الأدبي مهما كان نوعه فهو يعبر في الحقيقة على معاني اجتماعية وله أبعاد اجتماعية كذلك مستوحاة من مظاهر الحياة الاجتماعية(2) أو هي عبارة عن تجربة إنسانية عاشها صاحب النص في بيئة اجتماعية و تحت تأثير سلبي أو إيجابي العديد من العوامل الاجتماعية .

إن أهم بعد اجتماعي يحاول صاحب النص الأدبي بلوغه هو التغيير داخل المجتمع ، مستعملا في ذلك سلاح خاص و هو القلم الذي ينتج القصة و البيت الشعري و الرواية و غيرها من الأدوات التعبيرية التي يعتبرها السلاح الذي يمارس به ثورته و يرسم أهدافا و أبعادا اجتماعية يفترضها مسبقا و يعتقد بأنها أكثر إنسانية وأكثر عدالة مما هو موجود ، و ذلك باستخدام مصطلحات و مفاهيم مستقاة من واقع اجتماعي و لها معاني اجتماعية . من هذا المنطلق ينظر الباحث الاجتماعي إلى منتجي النصوص الأدبية على اختلاف تسمياتهم الأكاديمية على أنهم يعبرون عن مظاهر الحياة الاجتماعية سواء كانت عبارة عن تجربة إنسانية أم اجتماعية عاشها صاحب النص ، أو موقف إنساني يريد تبليغه للآخرين لزرع قيم اجتماعية يسعى لتجسيدها داخل المجتمع . و نعي بهذا أن النص الأدبي هو عبارة عن رسالة تحمل في طياتها حقائق يراد تبليغها للناس ، مع ضرورة تحلي صاحب النص عن قناعاته

وأفكاره السياسية و الإيديولوجية المسبقة و في حالة فشله تتحول تلك الرسالة وصاحبها إلى حزب سياسي أو قيادة عسكرية تريد توجيه الناس أو القارئ نحو قضايا و أهداف محددة مسبقا .

غير أن حال الواقع الاجتماعي و الأكاديمي في أي مجتمع يشجع على القول باختلاف الأبعاد الاجتماعية . للنصوص الأدبية وهي مرتبطة باختلاف الطروحات الفكرية والسياسية وتباين المعتقدات والإيديولوجيات , هذا الاختلاف يعتبر مؤشرا إيجابيا داخل أي مجتمع باعتباره يساهم في الحركية الاجتماعية والنقد(3) , وعلى الرغم من التباين في التصورات والأهداف المجتمعية المراد بلوغها من النص الأدبي , إلا أن الاتفاق يتطابق في السلاح المستخدم والممثل في الكلمة ذات المعنى الاجتماعي التي تعتبر سلاح يصعب إزالة آثاره أو إحداث أي تغيير داخل المجتمع دون استعمال الكلمة. وهذا ما يدفع إلى القول والجزم بأن أي ثورة داخل أي مجتمع قديما أو حديثا في بدايتها كانت كلمة وهي التي أشعلتها وهي التي تطفئها . وهي إشارة إلى أن الكلمة المشكلة للنص الأدبي دور في بناء المجتمعات وتغييرها و إعادة البناء الاجتماعي من جديد.

3- الأدب وعلاقته بالمجتمع :

عندما نتكلم عن علاقة الأدب بالمجتمع نجد أنفسنا مجبرين عن الحديث على علاقة الأديب بمجتمعه والمحيط الضيق والواسع الذي يعيش فيهما. فالأديب يعيش في وسط اجتماعي تؤثر فيه العديد من العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية وغيرها من العوامل المؤثرة والمشكلة لذلك الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه صاحب النص الأدبي . وهذا ما يجعل الأديب لا يعيش بمعزل عن هذه المؤثرات إما رافضا لذلك الواقع أو متقبلا ومدافعا عنه(4) .

ومهما كان موقعه - الرفض/ المدافع- فإنه يعبر على ذلك الواقع بمفاهيم اجتماعية زرعها المجتمع في فكر الأديب وهي من صنع المجتمع وهي تعبر على واقع اجتماعي.

إن الأدب يمثل الحياة الاجتماعية ويعبر عنها . لقد عرفنا الأدب الجاهلي على الظروف الاجتماعية والعادات و الشخصية الاجتماعية التي كانت موجودة , لقد وصفت الكثير من القصائد الشعرية صفات الرجل وبطولاته وشجاعته وغيرها من السلوكات الاجتماعية التي تغني بها الكثير من الشعراء الجاهليين , وهي تعتبر مادة دسمة للباحث الاجتماعي الذي يستخلص الكثير من الظواهر الاجتماعية من داخل القصيدة الشعرية وغيرها من النصوص الأدبية . ونعني بهذا ، أن الكثير من المشكلات الاجتماعية وأنماط الحياة الاجتماعية يتولى الأديب نقلها وتعريف الناس بها ضمن إطارها التاريخي و الاجتماعي(5) .

إن جميع الأدباء على اختلاف مشاربهم وقناعاتهم وخلفياتهم الفكرية والإيديولوجية يستمدون إنتاجهم الأدبي من واقع اجتماعي يعيشون فيه , فيحاولون ترجمة و نقل هذا الواقع إلى القارئ ضمن الإطار التاريخي و الاجتماعي الذي حدث وتطور فيه مع الإشارة إلى أن ذلك الإنتاج الأدبي الذي نقله الأديب لا ينفصل عن القضايا المجتمعية في فترة زمنية معينة فيقوم الأديب بنقلها والدفاع عنها بشكل حقيقي أو بشكل صوري إذا كان مرتبطا بالنخبة السياسية أو مستفيدا من الوضع العام وقد يكون ناقدا للوضع الاجتماعي نتيجة عدم رضاه على الأوضاع الاجتماعية والسياسية وبالتالي عدم رضاه على الحالة التي يوجد عليها المجتمع .

إن النص الأدبي من منظور سوسيولوجي يعبر على الظاهرة الاجتماعية ويمكن القول بصورة أخرى أن ثمة ظاهرة اجتماعية داخل النص الأدبي كونهما تتكلم عن حياة اجتماعية(6). ونمو هذه الحياة وتطورها يحكمها الحراك الاجتماعي وما يترتب عنه من سلوكات وأفعال وعلاقات اجتماعية وهي تمثل المادة الخام للأديب الذي

يحاول أن يؤثر فيها وبالتالي إعادة صياغة صورة اجتماعية بالشكل الذي يرغب فيه صاحب النص الأدبي.

لقد كانت المرأة محور اهتمام العديد من النصوص الأدبية ، لكن طريقة تناول نزار قباني لها في نصوصه الأدبية تختلف عن العديد من الأدباء. إذا ما حاولنا أن نقدم قراءة سوسيولوجية لمحتوى النصوص الأدبية ، فأننا نقول أن الأدب هو نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطا أدبيا ، بل يمكن أن نقول بأن المفاهيم التي يعبر عنها الأديب تفسر تفسيراً اجتماعياً من وجهة نظر علم الاجتماع ، لأن لديها معان ومقاصد اجتماعية . فالشاعر و الروائي أو القاص يعتمد دائماً على الملاءمة بين الكلمة ومعناها أو اللفظ والمعنى فأغلب النصوص الأدبية التي لقيت رواجا واسعا ، هي تلك التي اختار صاحبها كلمات لها معاني ودلالات اجتماعية وتعبر عن واقع اجتماعي معين . لأن مادة الأديب هي المجتمع فمنه يُعرف إنتاجه وإليه يصبه سواء كان ذلك الإنتاج يعبر عن رفض واقع اجتماعي أو محاولة تصويبه أو محاولة تحديد قضايا لها علاقة مباشرة بواقع الإنسان والمجتمع.

4- واقع التناول السوسيولوجي لمضمون النصوص الأدبية في الجزائر :

لقد انتشر علم الاجتماع في الجامعات الجزائرية بصورة ملفتة للانتباه حيث أصبح نموه وتطوره مقاسا بعدد خريجيهِ و أساتذته و هو ما يشكل تقدما ملحوظا يفوق تطوره في الجامعات الغربية منشأ هذا العلم. إن أهم عامل مساعد على انتشار هذا الفرع المعرفي هو وجود قناعة أو مزاعم عريضة داخل المجتمع تؤمن بقدرته على فهم القضايا المجتمعية وإيجاد حلول للأمراض الاجتماعية المتفشية . لهذا لم يتردد المشتغلين به في بدل المزيد من الجهد لفتح فروعهِ وتخصصاته في مختلف الجامعات الجزائرية والمراكز الجامعية الجزائرية بحيث تم اعتماد أغلب تخصصات علم الاجتماع في فضاء الجامعة الجزائرية باستثناء تخصص لم يفتح لحد الساعة وهو "علم الاجتماع الأدبي".

إن غياب هذا التخصص الذي يعتبر الجسر الرابط بين علم الاجتماع والأدب العربي قلل من الدراسات السوسيوأدبية رغم كثرة المواضيع السوسولوجية التي يتناولها الأدباء والشعراء. فرغم التقاطع المعرفي بين الفرعين العلمي و الأدبي سواء على مستوى تناول المواضيع أم على مستوى المناهج، إلا أن علم الاجتماع لم يطرح دراسات أكاديمية مستوحات من النصوص الأدبية. في المقابل توجد العديد من الدراسات تدخل ضمن ذلك التقاطع من انجاز مختصين في الأدب العربي تحت مسمى سوسولوجيا الأدب واعتمادهم في دراساتهم هذه على بعض المناهج السوسولوجية بعدما تم تحويلها بما يلائم دراساتهم الأدبية على غرار المنهج الجدلي، ومنهج النقد الاجتماعي وغيرها من المناهج التي طبقت في البداية على الدراسات السوسولوجية.

إن غياب تخصص علم الاجتماع الأدبي في الجامعة الجزائرية ونقص الدراسات السوسولوجية دفعنا إلى القول بأن هناك تقصيرا وعدم إهتمام بالمواضيع التي تتضمنها النصوص الأدبية وهذا أثر سلبا على الوظيفة الاجتماعية لعلم الاجتماع. ورغم إدراكنا بأن حكمنا هذا قاسٍ وحساس إلى درجة كبيرة، لكن ما نؤكد عليه أنها تمثل وجهة نظر نساهم بها في تشخيص العلاقة بين علم الاجتماع والأدب العربي من خلال تحليل نقدي لعلم الاجتماع والمشتغلين به. حالة التقصير هذه التي يعرفها علم الاجتماع في الجزائر ليست لعنة أبدية، وإنما هي حالة يمكن تجاوزها بتظافر جهود المشتغلين به وذلك من خلال:

- تكوين مختصين في علم الاجتماع الأدب .
- فتح تخصص علم الاجتماع الأدب على مستوى الجامعة الجزائرية.
- البحث في القضايا الاجتماعية التي تتضمنها النصوص الأدبية .
- خلق حوار بين الباحثين السوسولوجيين والمشتغلين بعلم الاجتماع والأدباء، والنقاد على اختلاف تسمياتهم الفرعية .

الهوامش :

- 1- صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1 ، ص 50 .
- 2- سيد البحراوي : المدخل الاجتماعي للأدب ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، 2001 ، ص 03 .
- 3- السيد يسين : النقد الاجتماعي للأدب ، دار التنوير للطباعة و النشر ، بيروت ، ط2 ، 1982 ، ص 140.
- 4- بيار زيمّا : النقد الاجتماعي - نحو علم الاجتماع النص الأدبي ، ترجمة عائدة لطفي ، ص 24 .
- 5- ميشيل عاصي : دراسات منهجية في النقد ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ط1 ، 1970 ، ص 57.
- 6- عبد العزيز جوسوس : إشكالية الخطاب العلمي في النقد العربي المعاصر، ص 140.